صفات النساء النفسية

بين سذاجة الطفولة وعبقرية الفكر

للدكتور جميل صليبا

كثيراً ما بحث الأدباء في النساء وصفاتهن وما يحمد ويذم من أخلاقهن ، فوصفوا المرأة الصالحة والزوجة الموافقة ، كما أفاضوا في ذكر صفة المرأة السوء وشرها . فأحسن النساء عندهم من كانت شريفة في قومها ، كاملة في عقلها ، فصيحة اللسان صادقة محبة لزوجها ، حافظة لسرها ؛ وشرهن من كان كلامها وعيداً وصوتها شديداً ، تدفن الحسنات وتفشي السيئات ، صخوب غضوب ضيقة الباع . إلا أن هذه الصفات التي ذكروها لم تبن على استقراء علمي ولا تحليل نفسي . فما هي صفات النساء وما هي أنواعهن عند العلماء ؟

بينما كنت ذات مرة ألقي درساً في علم النفس على تلاميذ لم يتجاوزوا الثامنة عشرة من سنهم قال لي أحدهم بعد أن ذكرت صفات الحوادث النفسية : هل تنطبق هذه الصفات على المرأة ، أم في الأرواح تذكير وتأنيث ؟

إن هذا السؤال — بالرغم من سذاجته — يتضمن شبهة فلسفية عميقة . فهل تشعر المرأة كما يشعر الرجل ؟ وهل تفكر كما يفكر أو تريد كما يريد ؟ وهل تختلف مشاعرها عن مشاعر الرجل كما يختلف جسمها عن جسمه ؟

قال بعضهم : إن الفرق بين المرأة والرجل في الحس والفكر والإرادة عظيم جداً ، وإن المرأة كانت في الجماعات الابتدائية للرجل لا فرق بينها وبين العبد ، حتى لقد ذكر لكوفه Legouvé أن أحد المجامع المقدسة في القرون الوسطى تناقش في هذا السؤال: هل للمرأة نفس أم ينفرد الرجل وحده بهذه الصفة الإلهية ؟ وقد ساقهم إلى هذه المناقشة ماجاء في التوراة عن خلق المرأة من ضلع من أضلاع الرجل ، وقول آدم : هذه عظم من عظامي ولحم من لحمي ، وعدم قوله إنها ذات نفس شبيهة بنفسه

وزعم آخرون أنه لا فرق بين الرجل والمرأة في الحس والعقل والإرادة ، وأن الفرق بين الرجال أنفسهم أكثر من الفرق بينهم وبين النساء . فما قاله أفلاطون : لا فرق بين الرجال والنساء . يجب أن يكون عدد النساء في جيش الجمهورية مساوياً لعدد الرجال . ويجب عليهن أن يتعلمن استعمال السلاح وركوب الخيل . وينبغي لهن أن ينزعن ثيابهن لممارسة الرياضة البدنية وألا يخجلن من ذلك كله لأن أحسن ثوب يصون المرأة هو ثوب الفضيلة . ومما قاله كوندورسه : يجب أن يكون التعليم واحداً بالنسبة إلى الجنسين لأن المرأة مساوية للرجل . ومما قالته مدام (نكردوسوسور) : إن البنات لا يختلفن عن الصبيان أبداً قبل العاشرة من السن

فالباحث عن حقيقة المرأة إما أن يكون مثل بوسويه الهازئ بزينة النساء وزهوهن فيقول لهن : لا تنسين يا سيداتي أنكن خلقتن من ضلع زائد من أضلاع آدم ؛ وإما أن يكون مثل أفلاطون الخيالي فيتصور مدينة فاضلة قائمة على سواعد الرجال والنساء معاً . وهذه المباحث الأولية لا تكشف الغطاء عن حقيقة المرأة ، بل هي على مثال ما ذكره سائر الأدباء أقوال خطابية لا توضح الأمر بل تزيده ظلاماً ، حتى لقد قال (ريدرو) في ذلك : « إذا كتبت عن المرأة فاغمس ريشتك في قوس قزح ثم رش على أوراقك غبار أجنحة الفراشة ، لأن المرأة هي موجود إلهي »

فلنرجع إلى علم النفس ولنسأل ما هي حقيقة المرأة ولندرس أحوالها النفسية على ضوء العلم الحديث

* * *

إن تحليل صفات النساء يكشف لنا عن أنواع مختلفة ، ويمكننا إرجاع هذه الأنواع إلى أربعة :

١ — المرأة الطفل ٢ — المرأة الحساسة

٣ — المرأة الحساسة الذكية ٤ — المرأة المفكرة

ولنبحث في كل من هذه الأنواع على حدة :

١ — المرأة الطفل : إن هذا النوع من النساء مشتت الفكر والقلب معاً ؛ فلا هو منظم الحكم ، ولا هو ثابت الحس ، بل يتبدل من صورة إلى أخرى بحسب الأهواء والعواطف . وقد وصفه (ديكنس) في روايته دوريت الصغيرة (La petite Dorit) . وبين العلماء أن له نوعين : المرضي والطبيعي . فالمرضي يعرف بشدة قبوله للتلقين ، والطبيعي يشتمل على النساء الخفيفات العقل الكثيرات الزهو اللواتي يتنقلن كالطير من فنن إلى آخر ؛ أو يشتمل على النساء الواسعات الخيال الكثيرات القلق والمطامح الأمل ؛ فإذا تكلمن مزجن الحقيقة بالخيال وأسرعن في التعبير عن أفكارهن أو تقدمت الألفاظ عندهن على الفكر . وقد يملن إلى الاطلاع ويرغبن في الكشف عن خوافي الأمور ، إلا أن ميلهن هذا بعيد جداً عن

محبة العلم ، فهن يرغبن فى المعرفة لا للمعرفة نفسها بل لحاجة في نفوسهن تدفعهن إلى الحديث . وإذا رغبن فى شيء مجرداً عن المنفعة المباشرة رضين بالقليل منه واكتفين باليسير . قلت لطفل مرة : إذا أعطيتك ثلاث برتقالات وأخذت منها واحدة فكم يبقى معك منها ؟ فقال على الفور : كيف تقول لى إنك أعطيتنى ثلاث برتقالات وأنت حتى الآن لم تعطنى شيئاً ؟ فالمرأة الطفل لا تختلف عن هذا الطفل فى طلب العلم . إنها تفضل المحسوس على المجرد ، والقريب النفع على البعيد القصد . فهى إذن مثل هذا الطفل الذى لا يعرف الحساب إلا إذا تذوق حلاوة البرتقالة

٢ — المرأة الحساسة : يختلف هذا النوع عن الأول بشدة العاطفة وعمق الشعور وتغلب القلب على العقل . إن المرأة الحساسة لاتقيس الأشياء إلا بمقياس العاطفة ولا تزنها إلا بميزان الهوى . فكل ما وافق هوى من نفسها صحيح ، وكل ما أعرضت عنه فاسد . لقد جاء فى بعض روايات (جورج ساند) شيء من صفات هذه المرأة . إنها تنسى هواها القديم عند وقوعها فى الهوى الجديد ، ولا تهتم بوقوعها فى التناقض وانتقالها من ضد إلى آخر . نعم إن الرجل نفسه خاضع لمنطق العواطف ولكنه يحاول فى كل حال من أحواله أن يبرر عواطفه ويجعل هواه معقولا . مثال ذلك : أن (ألسست) Alceste يقول عن نفسه إنه لا يحب سيليمين Céliméne إلا ليرجع إليها الفضيلة المفقودة ، فهو إذن يجد لهواه سبباً معقولا . أما المرأة فلا تهتم بهذه الوساوس ولا تميل إلى سفسطة التشكك ، بل تعلن الأمر كما هو ؛ فاذا كرهت رجلاً كان قلبها وحده مبرراً لها فى كرهها ، وإذا أحبت شخصاً لم تبحث عن الأسباب الباعثة على تعلقها به ، بل تصغى إلى نداء قلبها من غير أن تجد حاجة لتحكيم العقل . إن هذا النوع من النساء شبيه بالنوع الأول فى خوفه من التجريد ، وعدم ميله إلى الحق . إن فكرة العدالة مفقودة عند هذين النوعين ، والنساء على الأغلب لا يملن الى العدالة المجردة ، بل يفضلن عليها عدالة القلب . من ذا الذى يستطيع أن يقنع الوالدة أن ابنها لا يستحق النجاح فى الفحص ؟ العدالة ضيقة النطاق ، وقلب المرأة أوسع من أن يتقيد بهذه الحدود الضيقة . قد تكون العواطف للعقل نوراً وللإرادة قوة ، وقد يبعث الهوى على التضحية الخالصة فيذهب إلى ما وراء العدالة ويكشف الحجاب عن ذخائر القلب فينشرها ويذيعها ولكنه كثيراً ما يشوش أحكام العقل فيملأها ظلاماً .

٣ — المرأة الحساسة الزكية : وقد تكون العاطفة مصحوبة بقوة من الذكاء خفية لا تخلو من الدقة وحدس الحياة ، فتربط المرأة عواطفها بأفكارها وتريد أن تتغلب بها على مشاكل الحياة . إن هذا النوع من النساء قوى الملاحظة والانتباه والذاكرة ، واسع الخيال شديد الحس ، إلا أن قوة الحكم عنده مشوبة بدخان العاطفة وسائق الغريزة . لذلك تجده قوى الشعور بالمنفعة كثير الميل إلى العمل . كالزوجة التى تشعر بالرابط الاجتماعى وتقدره حق قدره وتبدل بعواطفها المعنوية بالفكرة الاجتماعية أو الخلقية أو الدينية ؛ وكالوالدة التى تدرك نظام الحياة فتتصور مثلا أعلى له تم تهيىء أولادها للفوز فى هذا النظام الجديد ؛ فهى تشعر بمشاكل الحياة وتريد أن تتغلب عليها بقوة الذكاء والإرادة . فكم شاب لم يتطلع إلى المعالى إلا بتأثير والدته ! وكم رجل لم يقدم على المغامرات السياسية أو المالية إلا بدافع من زوجته ! وكثيراً ما تكون المرأة هى القوة المحركة والدماغ المفكر والعقل المدبر ، ويكون الرجل هو الآلة المتحركة والواسطة المبلغة .

٤ — المرأة المفكرة : إن هذا النوع الأخير أقرب إلى الاهتمام بالمباحث العلمية من الأنواع السابقة ، فهو محب للاطلاع ميال إلى المعرفة ؛ إلا أنه كثيراً ما يضطرب أمام إشراق الفكر ويعجز جسمه اللطيف عن تحمل أعباء البحث . والسبب فى ذلك أن النساء عشن حقباً طويلة تحت وصاية الرجال بعيدات عن الحرية والحياة ، فلا غرو إذا ترددن فى البحث وشعرن بالقلق فى فضاء الفكر . وبالرغم من ذلك فان البنات أكثر اتباعاً للنظام من الصبيان . وقلما تجد فتاة تفضل الكسل على الاجتهاد ، بل إن أكثر البنات يصغين إلى أساتذتهن ويكتبن الأمالى ، ويحفظن دروسهن ؛ إلا أنهن لا يزلن حتى الآن أقل جرأة فكرية من الصبيان ، لأنهن يعتمدن على الذاكرة أكثر مما يعتمدن على قوة الحكم .

وقد تبين لعلماء العصر أن استعداد المرأة للرياضيات قوى جداً وأن فى وسعها أن تتعود التفكير المجرد ، إلا أنها لا تزال قليلة الثقة بنفسها فلا تبحث إلا فى الأشياء العملية النافعة أو فى الأمور المحددة . ومع أن مدام بيير كورى قد توصلت فى العلوم التجريبية الى درجة عالية فإن تلميذات فرع العلوم فى الجامعات أقل ثقة بنفوسهن من التلاميذ ، لأن التجريب العلمى يحتاج الى جرأة وتنظيم ، وهذان الأمران لا يزالان حتى الآن بعيدين عن المرأة .

ومما يؤيد هـذا أيضاً أن النساء اللواتى اشتهرن بالفلسفة (كهيباتيا) وغيرها لم يبدعن مذاهب جديدة بل إتبعن المذاهب القديمة وحللنها وهذبنها . فالمرأة أقرب الى الاتباع منها الى الابداع. وهى لا تقبل الحقائق المؤقتة ، بل تريد أن يكون كل شيء نهائياً فتسبغ على الحقائق العلمية حلة دينية وتقلب النسبي الى مطلق . إن تلاميذ الفلسفة يفضلون الكليات الفلسفية على الجزئيات ، فيضخمون الفكر البسيطة ويعممونها حتى تشمل الكون كله . أما تلميذات الفلسفة فيملن الى الجزئيات ويرغبن فى التحليل دون التركيب : فعقل المرأة عقل تحليلي ، أما عقل الرجل فعقل تركيبي . نعم إن المرأة واسعة الخيال ، ومن صفات الخيال الواسع أن ينشيء ويبدع ، إلا أن خيال المرأة يصلح لتبديل صور الأشياء وتغيير حقائقها لا لإنتاج الفرضيات المنظمة وإصلاح الواقع بها .

* * *

تلك هي أنواع النساء من الوجهة النفسية . فالمرأة الحساسة تصلح للشعر والموسيقى والتصوير والتمثيل ، والمرأة الحساسة الذكية تصلح للحياة العملية من تجارة وإدارة ، والمرأة المفكرة تصلح للعلم والفلسفة . وقد تمتزج هذه الصفات فتجتمع فى امرأة واحدة ، فيكون منها نوع معتدل صالح للقيام بجميع الأعمال .

وقد أخذت صفات المرأة تتبدل فى الهيأة الاجتماعية الحديثة لأنها قد شاركت الرجل فى جميع الأعمال من تجارة وصناعة وإدارة واقتصاد وسياسة ، فساقها التطور إلى استبدال كثير من صفاتها القديمة بصفات جديدة ، فاستبدلت بالحياء الجرأة ، وبالخشية الاقدام ، وبالسكون الحركة ، وبالسذاجة الحيلة ، وبالعبودية الحرية ، وبالعاطفة العقل . وأعتقد أن هذه الصفات الجديدة لا تفسد جمال المرأة بل تزيد سحرها قوة ، لأن العلم لا يجفف القلب بل يبدد ظلمات الغريزة ، وينير طرائق العقل ، ويكشف عن جمال الأشياء ، ويولد فى المرأة صفات نفسية مشابهة لصفات الرجل فى تفكيره وانفعاله وفعله ؛ ويقلب حياة المرأة الاتباعية الى حياة مفعمة بالحرية والإبداع . وما أدرى لعل التطور يكشف لنا فى المستقبل عن نوع جديد أكمل من هذه الأنواع الأربعة تتحد فيه العاطفة بالفكر والإرادة بالعقل . إن الأحلام ليست أقل تأثيراً فى التطور من اشتباك الأسباب الحقيقية واختلافها .

جميل صليبا
رئيس التعليم الثانوى بدمشق

من بساتين الفكر

رأيت فى نومى البارحة رؤيا أفزعتنى : رأيت أنى تزوجت . ولم تبين الرؤيا كيف تم ذلك ، ولكن وجدت نفسى على فرش وثيرة من الدمقس الأزرق فى حجرة جميلة ذات سجف من حرير متألق متماوج الألوان كقبة الحمامة . وسمعت حولى من يقول :

— هذا جهازها — جهاز من ؟ — عروسك

— ومن الذى زوجنى ؟ وممن العروس ؟

— من بيت حسب ونسب . ذات جمال ومال وحلاوة لسان . وهى فرصة كان لا بد من انتهازها . وقد علت بك السن وكاد يفوت أوان الزواج

— ومن انتهز لي هذه الفرصة ؟

— أولاد الحلال ، من قرائك المعجبين الذين يهتمون لأمرك

— شيء لطيف . وهؤلاء القراء المعجبون الذين زوجونى ، كيف فعلوا ذلك ؟ وأين وجدوا لي هذه العروس ..؟

— لا شأن لك بكل هذه التفاصيل . ولا تشغل بالك إلا بما أنت فيه من نعيم مقيم

— والعروس ؟ أسبق لى رؤيتها ؟ — لا . ستراها الليلة

— عجباً ! وكيف يزوجونى ممن لم أرها ونحن فى القرن العشرين ؟ آه أيها الناس ! إن هذا جاوز الحدود ...

— هى أيضاً لم ترك — أقرأت كتبي ؟

— لو كانت قرأت كتبك لما تزوجتك

— وكيف إذن أقنعوها ؟

— قالوا لها عنك كل شيء إلا الأدب والتأليف . فقد وجدوا من الحكمة وأصالة الرأى كتمان ذلك عنها إلى أن يتم العقد ويتعذر النقض

وفتحت عينى فى الصباح وأنا أقول : « اللهم أحمدك على استيقاظى قبل تمام العقد ، وقبل مواجهة الفتاة بذلك العيب الذي لا يغتفر ! نعم ان المرأة لن تتغير . إن شئون الفكر عندها شيء مخيف وكم من شعراء وأدباء أخفوا على نسائهم كنوز عقولهم ولم يظهروا لهن إلا كما يريدهم : رجالاً مستذلين كمقعة الرحال ! »

توفيق الحكيم